من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

المملكة العربية السعودية

المثل العليا في الاسلام

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

المدرس في الجامعة الاسلامية

افتتاحية الموسم الثقافي لمحاضرة الجامعة عام ١٣٨٥

من مطبوعات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

المملكة العربية السعودية

المثل العليا في الاسلام

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

المدرس في الجامعة الاسلامية

افتتاحية الموسم الثقافي لمحاضرة الجامعة عام ١٣٨٥

طبع بمطابع شركة المدينة للطباعة ـ جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد : مما لا شك فيه ولا نزاع أن شرع الله تعالى الذي شرعه لعباده ، والدين الذي ارتضاه لخيرته من خلقه ليكون خاتمة الرسالات هو أمثل طريق وأسمى تشريع وأبدع نظام من عمل به نجا ، ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم كما قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » . واذا أردنا أن ندرك حقيقة المثل العليا في الإسلام ونبرز حقيقة واقعية في عالم النظم والقوانين والشرائع فاننا نشير الى نظم الأمم وقوانينها التي ربطت حياتها بها فلا تحيد عنها.

فيقال : ان كل قانون أو نظام إنما هو عبارة عن مجموعة عادات وتقاليد المجتمع الذي يظهر ويسود فيه ، وبالتالي فهو نتيجة حياة سابقة ومن صنع الأمة التي اختارته ومسايرة لظروف حاضرة قابل للتغيير في المستقبل — واذا كان من صنع الأمة وانتاجها فلا يولد إلا في أرقى المجتمعات بعد أن تسير شوطاً بعيداً في الحضارة والرقي وتستقر عاداتها وتقاليدها في العرف العام والخاص .

ومثل هذه النظم وتلك القوانين لا يمكن لها أن توجد مثلاً عليا لأنها نتائج عادات وتقاليد ولقابليتها وخضوعها للتغيير من حسن الى أحسن ولأن الاستحسان فيها نسبي فقد يكون الحسن عند أمة وفي نظام ما غير حسن عند أمة أخرى وفي نظام آخر لعدم العصمة لواضعيه ولاختلاف وجهات النظر فيه .

وغاية ما في هذه النظم وتلك القوانين المحافظة على منتهى ما وصلت اليه قرائح أبنائها وموجديها وذلك في حدود تبادل المنافع وقانون المعاوضة .

بخلاف الإسلام فلم توجده أمة ، ولم يوجد نتيجة أفكار سائدة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد نزل يصلح عادات ويغير تقاليد ويوجد الأمة المثالية ، وينهض بالإنسانية الى أوج عزها كما نهض بالأمة الأمية الحفاة العراة حتى ملكهم الدنيا وسودهم على العالم بنظمه المثلى ومثله العليا كما قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . فهذب الأرواح وقوم النفوس الى حد الإيثار على النفس والإحسان الى المسيء .

مقارنة أدبية : ولو ذهبنا لنقارن بين منتهى ما وصلت اليه نتائج العقول وبين مبادىء الإسلام ومثله لبهرتنا شمس الحقائق الإسلامية وأذهلتنا أبعاد الفوارق الحسية في جميع المجالات شخصية كانت أو اجتماعية وبعرض بسيط لأرقى انتاج فكري وهو الانتاج الأدبي الذي هو مسرح الخيال ومضرب الأمثال وميدان المكرمات الإنسانية فاننا سنجد في هذا العرض مدى مثالية الإسلام العليا .

وان أخصب ما يكون الإنتاج الفكري الأدبي لهو في معاني العفو والإحسان ومكارم الأخلاق ونحو ذلك من الصفات النفسية الحميدة المكتسبة لأنها هي ميادين المنافسات واكتساب المكرمات ومع ذلك فاذا تأملنا قول الشاعر الذي يعد مضرب المثل في الإنسانية ، وحسن الانتاج حين يقول :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فانه مقارف ذنب تارة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فاننا لا نجده يبعد عن قانون المادية ولا بد فيه من اغماض العين على القذى من أجل الابقاء على الصديق : اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت . بل مع عدم تصور مثالية عليا في ذلك واليأس من وجودها : وأي الناس تصفو مشاربه .

فلا مجال للعفو والغفران في هذا الانتاج الأدبي الذي نعده رائعاً الى حد بعيد .

واذا جئنا الى قول آخر :

وكنت اذا الصديق أراد غيظي وأشرقني على حنق بريق
غفرت ذنوبه وعفوت عنه مخافة أن أعيش بلا صديق

فاننا نجد العفو والغفران بارزين ولكن بقيد وشرط . أما القيد فهو كونه عن الصديق دون عامة الناس ، وأما الشرط فهو لم يعف إلا مخافة أن يعيش بلا صديق فهو أيضاً لم يخرج عن نطاق النفعية وهذا هو ما يمكن أن يصل اليه التفكير الإنساني وينتج عنه نظام أو قانون أو فكر عام .

واذاما أخذنا نصاً من القرآن الكريم في هذا الصدد فاننا نجد مثلاً قوله تعالى:
أ — خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فهنا عفو بلا قيد وعرف بلا حد واعراض عن الزلات عن من ؟ الصديق فحسب لا ولكن عن الجاهلية عموماً .

ب — وخطوة اخرى قوله تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) فهنا أيضاً كظم للغيظ وعفو عام واحسان لمن أساء في سبيل نفع ولا في نظير عوض ولكن في سبيل الله الذي يحب المحسنين سبحانه وهذا من الاحسان لمن أساء لا شك أنه فوق نطاق تفكير البشر وخارج عن نطاق النفعية وقانون المادة . وهو أبعد غاية من ادراك الانسانية وهو بحق مثل أعلى يقصد اليه الإسلام فيسمو ببني الإنسان الى هذا المستوى الرفيع .

وعلى هذا النحو سنجد في هذه المحاضرة القيمة المثالية ما في الإسلام من أصناف المثل العليا مستوفاة بأمثلة واضحة جلية مما تضع بين يدي القارىء على مفاتيح كنوز الشريعة المطهرة وتفتح أمامه آفاق التفكير السامي وتضيء له آفاق المعرفة مما لم يسبق له عهد به سواء في المثل العليا في جانب الله تعالى في أسمائه وصفاته وفعاله أو في جانب التشريع ونظام الحياة بكامل مناهجها أو في جانب الأشخاص الذين يعملون بالشريعة الغراء أو في جانب ما أعد الله لهم من الجزاء الأمثل في دار كرامته ويوم يلقونه في الدار الآخرة .

والله أسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أنه على كل شيء قدير وصلى الله وسلم وبارك على خيرته من خلقه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

غرة ذي الحجة سنة ١٣٨٥ هـ

عطية محمد سالم
مدرس بالجامعة الاسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الكريم وآله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

« المثل العليا في الاسلام »

تعريف العنوان : إعلم أولاً أن المثل بضمتين جمع مثـــال وهو من جموع الكثرة المطردة • قال في الخلاصة .

وفُعُلُ الاسم رباعي بمـد   قد زيد قبل لام اعلام فقـد
مالم يضاعف في الأعم ذو الألف .. الخ •

المثال لغة : والمثال يطلق لغة على عدة معان منها :

١ – القصاص ، ٢ – المقدار ، ٣ – وصفة الشيء « والقالب الذي يقـدر عليه مثله كالمثل في الأخيرين وهما المراد هنا . والعليا : تأنيث الأعلى وهو ماله فضل على غيره في العلو مع مشاركته له ذلك ووجه كون المنعوت جمعاً والنعت مفرداً مع أن النعت الحقيقي أعني غيرالسببي يلزم مطابقته للمنعوت افراداًوجمعاً وتثنية وتذكيراً وتأنيثاً هو ما تقررفي النحو من أن الجمع المكسر بنوعيه والسالم من جموع التأنيث كلها يجوز اجراؤها مجرى الواحدة المؤنثة التي هي غير حقيقة التأنيث قال في الخلاصة :

والتـاء مع جمع سوى السالم من   مذكر كالتاء مع احدى اللبن

وقال بذلك بعض الكوفيين أيضاًفي الجمع المذكر السالم وعليه قول الزمخشري:

(لا أبالي بجمعهم   كل جمـــع مؤنث)

والتأنيث بالألف كالتأنيث بالتاء الساكنة في الأفعال المتحركة في الأسمـاء قال في الخلاصة : (علامة التأنيث تاء وألف) •

فنعت الجمع المفرد في المثل العليا كقوله تعالى : (ولي فيها مآرب أخرى ، وقوله : لنريه من آياتنا الكبرى وقوله : فما بال القرون الأولى ، وقوله ، ولله الأسماء الحسنى وقوله : أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ونحو ذلك •

والمثل بفتحتين : أيضاً يطلق على الصفة ، ويطلق على الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله •

وإذا علمت ذلك فاعلم أن المثل العليا التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالتقسيم الأول انما هي قسمان : قسم منها وهو القسم الأعلى الذي لا يماثل انما هو لله جل وعلا وحده كما بين ذلك بقوله : ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم. قال ابن جرير رحمه الله: يقول ولله المثل الأعلى وهو الأفضل والأطيب والأحسن والأجمل . وذلك التوحيد والاذعان له بأنه لا آله غيره.

والتحقيق أن المثل الأعلى المذكور شامل للتوحيد ، والاذعان له جل وعلا بأنه لا آله غيره ولما هو متصف به من صفات الكمال والجلال مما لا شبيه له ولا نظير . كما قال تعالى : فلا تضربوا لله الأمثال وقوله : ولم يكن له كفؤ أحد ، وقوله : ليس كمثله شيء وهو السميع العليم . وقال تعالى : قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذاً من الظالمين وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ، يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

فهذه الآيات وامثالها الكثيرة في القرآن مما يوضح المثل الأعلى الذي هو لله جل وعلا وحده.

والقسم الثاني : من المثل العليا في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وينقسم بالاستقراء الى ثلاثة أقسام :

الأول منها : المثل العليا في التشريع بحيث يكون النظام التشريعي جاريا على أكمل الوجوه وأحسنها .

الثاني منها : المثل العليا في أعمال وأخلاق العاملين بمثل التشريع العليا .

الثالث منها : المثل العليا أعني الصفات الكاملة في جزاء أولئك العاملين

بمثل التشريع العليا يوم القيامة . وسنمثل لكل واحد منها بأمثلة يعلم منها نظائرها .

أما الأول منها : وهو التشريع فلا يخفي أن تشريع خالق السموات والأرض جار على أكمل الوجوه وأبدعها وأحسنها وأتمها ، ومعلوم أن المصالح التي يدور حولها التشريع السماوي ثلاث وهي :

١ — درء المفاسد ، المعبر عنه في الأصول بالضروريات .

٢ — وجلب المصالح ، المعبر عنه في الأصول بالحاجيات .

٣ — والجري على مكارم الأخلاق وأحسن العادات المعبر عنه في الأصول بالتحسينات والتتميمات .

بيان الضروريات : ومعلوم أن الضروريات ست وهي (١) دفع الضرعن الدين (٢) وعن النفس (٣) وعن العقل ، (٤) وعن النسب (٥) وعن العرض (٦) وعن المال ولا شك أن صيانة دين الإسلام لهذه الست عما شرع فيه من الزواجر الرادعة عن انتهاك حرمتها صيانة واقعة موقعها جارية على أكمل الوجوه وأتمها وقد فصلنا الآيات الموضحة لدلك في بعض المحاضرات السابقة وسنلم بذلك هنا المامة خفيفة .

أما الدين فقد جاءت آيات وأحاديث بالمحافظة عليه كقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ..) وفي آية الأنفال : (ويكون الدين كله لله) وقوله تعالى : (تقاتلونهم أو يسلمون) وقول النبي ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله الاالله) الحديث وقوله : من بدل دينه فاقتلوه .

وأما النفس فالمحافظة عليها بشرع القصاص معروفة قال تعالى ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب . الآية وقال تعالى : (كتب عليكم القصاص في القتل) الآية وقال سبحانه (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا) الآية . أما العقل فقد جاء الكتاب والسنة بالمحافظة عليه وذلك بتحريم كل مسكر قال تعالى ، (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون الى قوله سبحانه ، (فهل أنتم منتهون) . وقال ﷺ كل مسكر حرام وقال ما أسكر كثيره فقليله حرام وللمحافظة على العقل شرع حد شارب الخمر ..

وأما النسب فقد جاءت في القرآن آيات تقتضي المحافظة عليه والمحافظة عليه من حكم تحريم الزنا لئلا يختلط انساب المجتمع قال تعالى ، (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة الآية) وحكم الرجم معروف ومن حكم ذلك المحافظة على أنساب المجتمع من الاختلاط والضياع وقال تعالى ، (ولا تقربوا الزنا فانه كان فاحشة وساء سبيلا ‥) ولأجل المحافظة على النسب أوجب الله سبحانه العدة على التي فارقها زوجها بطلاق أو موت لئلا يختلط ماء رجل بماء آخر في رحم امرأة قال تعالى ، (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) الآية وقال تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) وللمحافظة على النسب منع سقي زرع الرجل بماء غيره ومن أجل ذلك منع تزويج الحامل حتى تضع حملها قال تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) . وأما العرض فقد جاءت آيات بالمحافظة عليه كقوله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) الآية وقال تعالى (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ‥ وقد أوجب الله جلد ثمانين في القذف صيانة لاعراض المجتمع الإسلامي قال تعالى : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا الآية ‥

وأما المال فقد جاء القرآن العظيم بالمحافظة عليه وباحترام ملك الفرد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) . وقال تعالى : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) . ولأجل المحافظة على المال أوجب قطع يد السارق . قال تعالى : (والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله) الآية . وأما جلب المصالح فقد فتحت له أبواب كثيرة في الكتاب والسنة ، ومن المعلوم أن الشرع الكريم جاء بإباحة المصالح المتبادلة بين أفراد المجتمع ليستجلب كل منهم مصلحته من الآخر كالبيوع والأجارات والأكرية والمساقات والمضاربة ونحو ذلك .

فكل التشريع السماوي يتضمن المثل العليا بأنواعها الثلاثة المذكورة ، ومن مثله العليا أنه يشرع فيه الحسن ثم يرشد فيه أيضاً الى ما هو أحسن منه ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) . فالانتقام من الظالم حسن بين تعالى حسنه بقوله : (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ومعلوم أن انتصاف المظلوم من الظالم حسن ثم أرشد الى ما هو أحسن بقوله : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) . فالعفو والتجاوز أحسن من الانتقام .

وكقوله : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فهذا حسن ثم أرشد إلى ما هو أحسن منه بقوله : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) الآية .

وكقوله : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) فهذا أحسن ثم أرشد الى ماهو أحسن منه بقوله : (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) .

وكقوله تعالى : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) ثم أرشد الى ما هو أحسن منه وهو العفو عن السوء بقوله : (ان تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً) .

وكقوله : (والجروح قصاص) ثم أرشد الى ما هو أحسن بقوله : فمن تصدق به فهو كفارة له) على أصح التفسيرين . وكقوله : (وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) ثم أرشد الى ما هو أحسن بقوله : (وان تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) فانظار المعسر الى الميسرة حسن وأبراؤه من الدين أحسن منه .

وكقوله تعالى :(وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) ثم ارشد الى ماهو أحسن بقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) فأخذ كل واحد من الزوجين نصف المهر في حالة الطلاق من قبل الدخول حسن وعفو كل واحد منهما عن الآخر في نصفه أحسن وقد أرشد الله اليه بقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ثم نهى عن نسيان هذا الفعل الكريم بقوله : (ولا تنسوا الفضل بينكم) .

ومما يوضح العدالة التامة والانصاف الكامل في التشريع السماوي وأنه يأمر المسلمين بالعدالة في أعدائهم ، وينهاهم عن أن يحملوهم بغضهم وعداوتهم على

العدوان عليهم أو عدم العدالة فيهم كقوله تعالى : (ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) الآية . وقوله : (ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى) .

ومما يوضح ذلك أيضاً أنه يأمر بالقسط والعدالة ولو كان ذلك على نفس الإنسان أو والديه أو قرابته وينهى عن اتباع الهوى في ذلك ويبين أن كون هذا غنياً وهذا فقيراً لا يجوز أن تتخذ منه طريق الى ظلم الناس بدعوى الأخذ من الغني للفقير وذلك في قوله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله بما تعلمون خبيراً) .

ومما يوضح ذلك أن يأمر باحترام ملك الفرد وبين ما في عدم احترامه مما لا ينبغي كاخراج الأضغان قال تعالى : (ولا يسألكم أموالكم أن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) . وقال تعالى : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) وقال تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) الآية . وقال تعالى : (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

وإذا تأملت قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون) علمت أن التشريع السماوي مثل عليا لا نظير لها مشتملة على العدل والانصاف والإحسان ومكارم الأخلاق ، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة .

وقد ضرب الله امثالاً لكلمة الإسلام وكلمة الكفر ، وللإسلام والكفر ، وللمسلم والكافر :

أ - (كلمة الإسلام والكفر) قال تعالى : (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربهاويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ب - (ومثل الإسلام والكفر) قال تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربيه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) . وقال تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) .

أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

وكقوله : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات . وقوله : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) الآية .

جـ - (ومثل المسلم والكافر) قال تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) . وقوله تعالى : (ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) . وكقوله تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات) الى غير ذلك .

المثل العليا في اخلاق العاملين

وأما الثاني الذي هو المثل العليا في أخلاق العاملين بمثل التشريع العليا فقد دل الوحي على أن العامل بالقرآن تكون أخلاقه مثالا أعلى قال تعالى في نبيه ﷺ : (وإنك لعلى خلق عظيم) ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ الذي ذكر الله أنه عظيم قالت : كان خلقه القرآن فدل ذلك على أن العامل بالقرآن يكون خلقه مثلا أعلى وقد بين تعالى في كتابه كثيراً من الآثار الحميدة الناشئة عن العمل بما أنزل الله على نبيه حتى انه ضرب لذلك الأمثال في الكتب السابقة فبين أن مثل العاملين بالقرآن في التوراة أن صفتهم الكريمة التي وصفوا بها فيها انهم اشداء على الكفار بالله رحماء بينهم ركوعهم وسجودهم كثير في صلاتهم وابتغاؤهم فضل ربهم ورضوانه وان آثار السجود ظاهرة علاماتها في وجوههم ، وان مثلهم في الانجيل في كثرتهم بعد القلة وقوتهم بعد الضعف وشدة مؤازرة بعضهم لبعض كمثل الزرع ينبت قليلا ضعيفاً ثم يقويه النابت من شطئه فيستغلظ ويستوي على سوقه حتى يكون كثيراً قوياً متماسكاً . قال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراه ثم قال تعالى : ومثلهم في الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ به الكفار) .

وقال بعض أهل العلم ان المثلين في التوراة والأنجيل معاً وهو خلاف الظاهر وصفاتهم هذه في التوراة والأنجيل كفيلة بصلاح الدنيا والآخرة وكفيلة بالقوة الروحية والقوة الجسمية وكل ذلك من آثار العمل بنظام السماء الذي نظمه خالق السماوات والأرض وأنزله على لسان سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه فبين تعالى من صفاتهم الكريمة انهم يشتدون في الحال المناسبة للشدة ويلينون في الحال المناسبة للين لأن الشدة في محل اللين حمق وخرق واللين في محل الشدة ضعف وخور . قال الشاعر :

اذا قيل حلم قل فللحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

وقال آخر :

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد

وقال آخر :

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

وأعطى اذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفي المهند

وقال تعالى ، (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظاً القلب لانفضوا من حولك) الآية .

وقد أثنى الله على قوم مؤمنين بهذا الثناء الجميل في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين .. الآية .. وقد أمر نبيه ﷺ بذلك ليشرع ذلك على لسانه بقوله تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) وقوله تعالى واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .

وقوله تعالى في الجانب الآخر « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » وبين أيضاً انهم يرون ركعاً وسجداً لله يبتغون فضله ورضوانه وذلك يهذب أرواحهم ويقوي نفوسهم ويقوى صلتهم بخالقهم جلا وعلا وانهم متماسكون يقوي بعضهم بعضا ويؤازر بعضهم بعضا كمؤازرة الشطء للزرع وفي ذلك قوتهم الجسمية ، فدل ذلك على اصلاح التشريع السماوي للبشر من الناحيتين : الناحية الجسمية والناحية الروحية لأن الانسان مركب من روح وجسد ولكل منهما متطلبات لاتغني عنها متطلبات الآخر .

وهذه الصفات التي هى مثل العاملين بهذا القرآن في التوارة والانجيل مستلزمة لتهذيب الروح وطاعة خالق هذا الكون جل وعلا ولسياسة المجتمع الخارجية والداخلية لأن السياسة الخارجية تقوى وتستحكم بحصول أصلين .

١ – أحدهما : اعداد القوة الكافية لرد كل هجوم مسلح .

٢ – الثاني : الاتحاد الصحيح حول تلك القوة وقد اشار في الآية المذكورة الى قوتهم الكافية بقوله : كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ) الى قوله « ليغيظ بهم الكفار » أي من شدة قوتهم وأشار الى اتحادهم وعدم الفشل بينهم بقوله

« رحمـاء بينهم » فكل منهم رحيم بالآخر يحب له كما يحب لنفسه فاخوتهم صادقة وكلمتهم مجتمعة وما تضمنته هذه الآية من الأصلين المذكورين جاء مصرحـاً به في آيات أخرى كقوله في الأول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الآية ..ونص هذه الآية مساير للتطور مهما بلغ ، صريح في الأمر باعداد المستطاع من القوة بالغة ما بلغت من التطور .

ومعلوم من دلالة هـذه الآية الكريمة ان التوا كل والضعف والاخلاد الى الأرض والاستسلام للعجز كل ذلك مخالف للامر السماوي في قوله « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والله يقول « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

وكقوله تعالى في الثاني (التضامن) ولا تنـازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم الآية .. وقوله واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .. الآية ..وقد بين تعالى أن سبب اختلاف القلوب ضعف العقول في قوله تعالى (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ثم بين العلة الموجهة لذلك بقوله « ذلك بأنهم قوم لايعقلون » .

الداخلية : أما السياسة الداخلية فمدارها على الضروريات الست أعنى الدين والنفس ، والعقل والنسب ، والمال ، والعرض . وكلها يستلزمها ما ذكر من مثلهم لأن قوله « تراهم ركعاً سجداً » يشير إلى قوتهم في دينهم وقوله « رحماء بينهم » يستلزم الانصاف بينهم وعدم الظلم . فيما ذكر لمحبة بعضهم بعضا وقوة دينهم واذا اجتمعت قوة الدين وصدق المحبة انتفى الظلم .

وقد بين في آيات اخري ان عدم الاتصاف بتلك الصفـات يستلزم الفتنة والفساد الكبير وذلك مشاهد اليوم . وايضاح ذلك انه تعالى لما بين في اخريات الانفال انه لا موالاة بين المؤمنين والكافرين ، وان المؤمن ولي المؤمن ، والكافر ولي الكافر ، صرح بأنهم إن لم يفعلوا ذلك تكن الفتنة في الأرض والفساد الكبير قال تعالى « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » الى أن قال : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » ثم اتبع ذلك بقوله « الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) وقد بين جل وعلا ان المؤمن ان اتخذ الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين

انه ليس من الله في شيء إلا لضرورة الخوف فيرخص في قدر ما يدفع الضرر ولا يدفع بغض القلب للكافرين . قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه) الآية . وقال تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) .

وقد علمت أن مما ذكرنا أن من المثل العليا في دين الإسلام مراعاة الروح والجسم معاً . وبه تعلم أن اهمال المسلمين للناحية الجسمية من عنصري الإنسان وتكاسلهم وتواكلهم وإخلادهم إلى الأرض في عجز وضعف حتى احتقرهم عدوهم وأهانهم وصار لا يحسب لهم حساباً مثل سوء لا مثل أعلى لأنه مخالف لنظام السماء كما بينا ، وان إهمال الذين برعوا في خدمة الجسم للناحية الروحية من عنصري الإنسان مثل سوء أيضاً بل هو الويلة العظمى والداهية الكبرى عليهم ، ولذا تراهم في قلق دائم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر ليتخلصوا من شر تلك القوة التي بذلوا في تحصيلها كل امكانياتهم ، ولو كان كل من الطرفين يعلم انه ان دمر ما لديه منها أن الآخر يفعل ذلك لبادروا كلهم إلى تدميرها وما ذلك إلا لأن تلك القوة الهائلة لم تدبرها روح مهذبة مرباة على ضوء نور سماوي .

فالقوة المادية إذا طغت ولم تدبرها روح مهذبة لم يتزن إتجاهها بل قد تتوجه إلى ما فيه الويل والهلاك لبني الإنسان . فأنياب الأسد واظفاره قوة حيوانية ولكن الروح التي تدبرها روح بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والغشم ، وبهذا تعلم أن كلا من المسلمين اليوم وأعدائهم محتاجون إلى مثل الإسلام العليا .

فالكفار محتاجون إلى تربية أرواحهم على ضوء النور السماوي ليوجهوا القوة التي حصلوها توجيهاً سديداً في ضوء ارشاد الحليم الخبير بما أوحي على لسان نبيه ﷺ مما فيه صلاح الدنيا والآخرة .

والمسلمون محتاجون إلى ذلك أيضاً وإلى مواصلة العمل بجد واجتهاد ليقوموا بمتطلباتهم الجسمية ولو كانوا يأخذون ذلك عمن برعوا فيه من الكفار وهذا العمل المزدوج للروح والجسم مثال أعلى من مثل الإسلام العليا ولو كان حظ

الجسم مأخوذا من استنتاج الكافرين . و كذلك كان ﷺ يفعل ، ونحن دائماً في المناسبات نذكر من ذلك أمثلة منها أنه ﷺ لما تظاهر عليه كفار مكة وهاجر عنهم ودخل هو وصاحبه الغار كما حكى الله عنهما في قوله : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني أثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) ، وجد خبيراً كافراً له خبرة بالطريق ومعرفة بالأرض وهو عبد الله ابن الاريقط الدؤلي فانتفع ﷺ بخبرة هذا الخبير الكافر وكان دليله حتى أوصله المدينة بسلام ولم يمنعه كفره أن ينتفع بخبرته الدنيوية .

ومنها أنه ﷺ لما حاصره وأصحابه الأحزاب ذلك الحصار العسكري التاريخي المشهور المنصوص في سورة الأحزاب بقوله : (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم الى قوله وزلزلوا زلزالا شديداً) .وقال له سلمان: كنا اذا خضنا خندقاً، أخذ تلك الخطة العسكرية فانتفع بها ولم يمنعه من ذلك أن أصلها من المجوس الكفرة ، ومنها أنه ﷺ يمنع الغيلة التي هي وطء المرضع لأن العرب كانوا يظنون أنها تضر بالولد وتضعف عظمه كما قال شاعرهم :

فوارس لم يغالوا في رضاع ... فتبتوا في اكفهم السيوف

فاخبرته فارس والروم بأنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم فأخذ تلك الخطة الطيبة منهم . ولم يمنعه من ذلك كفرهم .

ولما أوضحنا ان من مثل الاسلام العليا السعي المزدوج للروح والجسم وللدين والدنيا وكان في طريق طبيعية ذلك في الظروف الراهنة مشكلة عظمى وعقبة كؤد أردنا أن نكشف عنها القناع ونبرزها ليتسنى علاجها .

وايضاح ذلك ان جميع الطرق والميادين الى الحصول على ما يتطلبه الجسم من الماديات بحسب تطور الحياة في أحوالها الراهنة كلها انما نظمها ومهدها قوم غير مسلمين وملؤا كل الطرق اليها من الالغام من العقائد الفاسدة والنظريات الملحدة وتصوير الاسلام ورجاله بصورة مشوهة منفرة بعيدة عن الحقيقة والواقع بعد الشمس عن اللمس فعلى المسلمين ان يجتهدوا في نزع الالغام من طرق الحياة ليمكنهم ان يعلموا أبناءهم مايقدرون معه على سد الفراغ المادي الذي لا بد من سده في الظروف الراهنة لتطور الحياة البشرية فيستجلبون بأموالهم الرجال

البارعين في العلوم المادية ويجعلون على مناهج تعليمها وفي تطبيق تلك المناهج رقباء من رجال الدين العالمين لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وبذلك يحصل لهم ما تتطلبه الاجسام البشرية مع المحافظة على التراث الروحي الذي هو علامة الاصطفاء من خالق السموات والأرض « المنوه عنه بقوله تعالى » ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير . آية فاطر هذه (٣٦) من عجائب هذا التراث الروحي لأن الله بين فيها أن إيراثه اياه يختص بالذين اصطفاهم من عباده وقسمهم الى ثلاثة اقسام .

١ – ظالم لنفسه ، ٢ – ومقتصد ، ٣ – وسابق بالخيرات . ثم يبين ان ذلك الايراث لهذا الكتاب الذي هو أساس دين الاسلام هو الفضل الكبير منه جل وعلا على الذين اورثهم اياه ثم وعد الجميع دخول جناته وهو لا يخلف الميعاد . قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » وكان بعض أهل العلم يقول (حق لهذا الواو أن تكتب بماء العينين) يعني واو يدخلونها لأنها شاملة للظالم والمقتصد والسابق ، ومن الأدلة على شمولها لجميع المسلمين مطيعهم وعاصيهم انه قال بعدها « والذين كفروا لهم نار جهنم » .. الآية فدل ذلك على شمولها لغير الكفار من عامة المسلمين ، وتقديمه تعالى في هذه الآية الظالم لنفسه على المقتصد والسابق في الوعد بالجنة فيه سؤال معروف وهو ما وجه تقديم الظالم ؟.

وللعلماء عنه أجوبة منها أن المقام مقام اظهار الكرم والرحمة فقدم الظالم لئلا يقنط وأخر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبطه . ومنوها : ان اكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم فقدم الظالم اعتناء بكثرة العدد . كذا يقولون والله تعالى أعلم .

النوع الثالث في جزاء العاملين

وأما النوع الثالث وهو المثل العليا في جزاء العاملين بمثل التشريع العليا فهي كثيرة واضحة كقوله تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها » .. الآية .. وقوله تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمها وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » . وقوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . فهذه أمثلة للمثل العليا من نظام الاسلام والمثل العليا من آثار العمل بنظام الاسلام والمثل العليا من جزاء العمل بنظام الاسلام .

واعلم ان المسلمين ليس لهم مثل سوء وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ انه قال : ليس لنا مثل السوء الذي يعود في هيئته كالكلب يرجع في قيئه — هذا لفظ البخاري في صحيحه .

ولما تناظر الامام الشافعي وأحمد في رجوع الواهب في هبته ، والشافعي يرى إباحة ذلك وأحمد يرى منعه فاستدل أحمد لمنعه بحديث العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه فقال للشافعي : نعم ولكن الكلب لا يحرم عليه الرجوع في قيئه فقال الامام أحمد قال النبي ﷺ في أول الحديث ليس لنا مثل السوء والعود في القيء مثل سوء وقد شبه النبي ﷺ العود في الهبة فهو أيضاً كمثل السوء وقد نفي عنا ﷺ مثل السوء فليس لأحد إتيانه لنا .

وهو مما يدل على انه ليس للاسلام ولا المسلمين مثل سوء بخلاف الكافرين فلهم مثل السوء بأنواعه الثلاثة قال تعالى « للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء .. » الآية وقال تعالى مثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » إلى قوله : ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وكانوا أنفسهم يظلمون ، وكقوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله .

وقال تعالى : « ثم كان عاقبة الذين اساؤا السوء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » الى غير ذلك من الآيات الدالة على انهم ليس لهم الا مثل السوء في نظامهم الذي يسيرون عليه وفي جزاء أعمالهم يوم القيامة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

شركة المدينة للطباعة ـ جدة